

القابلية للتنصير... لماذا الآن؟

الأستاذ محمد أرزقي فراد
باحث اجتماعي



المساس بحرمته.

وأودّ أن ألفت الانتباه إلى أنني سأقتصر في كلمتي عن الجوانب التاريخية والسياسية والاجتماعية لظاهرة التنصير في بلاد الزواوة - كنموذج - دون التعرض للجانب الفقهي الذي يتجاوزني أمره، لذلك فهو متروك لأهل الاختصاص، ولا شك أن أهمية القضية تتطلب منا طرح الإشكالية على أسس علمية، تركز أعمال العقل بأدواته النقدية، دون موارد أو التفاف حول الموضوع، بدل الاكتفاء بالطرح العاطفي المنجب لردود أفعال تعجز

بادئ ذي بدء تجدر الإشارة إلى رحابة صدر الإسلام الذي اعترف بالآخر المغاير، قبل ظهور وثيقة حقوق الإنسان الوضعية بقرون عديدة، وذلك من خلال احترامه لأهل الكتاب والأديان الأخرى وفق مبدأ [لا إكراه في الدين]، لأن قوته ليست في القهر والقسر والإكراه، بل في الفكرة وأصالة القيم التي أرادها الله أن تكون رحمة للعالمين، بالحوار والحجة والحكمة، لذلك فمن الطبيعي أن يقر دستورنا في المادة (36) حرية المعتقد، ويسهر القائمون على حمايته، على عدم

علمية للدراسات الاستشرافية، تطرح مثل هذه الأسئلة، وتدرسها قبل اتخاذ القرار، أم تكتفي باتخاذ إجراءات لا تعدو أن تكون مجرد ردود أفعال تزيد الوضع تفاقمًا؟

هل فتحت المنابر الإعلامية والسياسية للنخب، لإبداء رأيها في هذه القضية الشائكة؟

تلكم هي المفاتيح التي تساعدنا على مناقشة قضية التنصير.

ظاهرة التنصير في عهد

الاستعمار: بعد أن تمكن الاستعمار الفرنسي من احتلال الجزائر عسكريا، سعى إلى تفكك المجتمع بطرق شتى، منها زرع سياسة [فرق تسد]، مع تركيز جهوده على بلاد الزواوة ذات اللسان الأمازيغي، وزعم الفرنسيون (ضباطا وأطباء وإداريين) الذين آمنوا بمشروع [الوهم القبائلي Le Mythe Kabyle] أمثال العقيد [أوجين دوماس Daumas] واللقب [فابر Faber] والدكتور [وارنيي Warnier] و[كميل

عن الغوص في أعماق القضية.

فلماذا ظهرت القابلية للتنصير في زمن الاستقلال، وليس في عهد الاستعمار والاستعمار، علما أن جميع الظروف كانت مواتية لفرنسا آنذاك؟

فهل معنى ذلك أن هناك خللا ما في نظامنا السياسي، وفي منظومتنا التربوية والإعلامية والثقافية والجامعية، التي عجزت عن إخراج الأمة من الإسلام التقليدي إلى إسلام العقل، وعن تخليص شبابنا من القراءة الاستعمارية لتاريخنا؟

هل قضية التنصير تهويل أم تهوين؟
هل نملك إحصاءات دقيقة خاصة بها؟
هل التنصير قضية عقائدية بحتة أم قضية سياسية عميقة؟

هل هناك علاقة بين إقصاء الأمازيغية في الماضي القريب ظاهرة التنصير؟
من المستفيد محليا من حركة التنصير؟

هل تملك الدولة الجزائرية مراكز

2- غلق الزوايا وتعويضها بمدارس فرنسية بشكل مختلف.

3- تعطيل الشريعة الإسلامية وتشجيع العرف المحلي، كتمهيد لتكريس القوانين الفرنسية.

وذكر [جول ليونيل Jules Lionel] في كتابه "قبائل جرجرة Kabylie de Djurdjurae" الصادر سنة 1892م، أن الفرنسيين قد فكروا في استقدام المسيحيين الموارنة من لبنان من أجل إضعاف الإسلام بهذه المنطقة، ودعم التنصير باعتباره رافدا للسياسة الفرنسية، ولم تتراجع حكومة فرنسا عن ذلك، إلا بعد أن تأكدت من عدم جدوى هذه السياسة.

والحق أن أهل الزواوة قد صمدوا صموداً بطولياً أمام إصرار الفرنسيين على تكثيف حملة التنصير في أرضهم، وسجل في هذا الصدد سكان قرية آث فرح بعرش آث براثن موقفاً حازماً، إزاء مشروع كان يقضي بتوطين أحد الرهبان في قريتهم في الستينيات من

سباتي Sabatier Camille والبارون [أوكبتان Aucapitaine] و[ماسكيري Masqueray] والأسقف [لافيجري Lavigerie] وغيرهم، كلهم زعموا أن سكان الزواوة يشكلون شعباً بربرياً متميزاً، يختلف عن الشعب العربي كل الاختلاف، بينهما، عداوة مستحكمة! برأي دوماس، كما ادّعوا زوراً أن إسلام القبائل سطحي وفاتر، يخفي العقيدة المسيحية المتجذرة في دواخل مجتمعه التي يؤكد أنها -برأي أوكايتان- وشم في شكل صليب يحملونه، وأنهم من أصول أوروبية جرمانية، لذلك فهم أقرب إلى الحضارة الفرنسية.

هذا وتركزت جهود الفرنسيين حول تنصير سكان القبائل بقيادة الأسقف لافيجري، بمعية إميل ماسكاري المشرف على مشروع المدارس الفرنسية في المنطقة، عن طريق:

1- ستغلال الكوارث الطبيعية، من جفاف ومجاعة وانتشار وباء الطاعون، ما بين (1865-1870).

ترميم مسجدهم وبناء مدرسة، لأنهم عاجزون -بفعل ويلات الحرب- عن ذلك، وقد تأثر الحاكم أيما تأثر بإصرارهم على الاحتفاظ بهويتهم الإسلامية، فسجل قائلاً: (لقد تأثرت كثيراً بهذا التفاني والتقدير الذي لا مثيل له... ولقد وعدتهم بأني سأتوسط لهم بحماس بغية تلبية مثل هذه الأمانى المشروعة).

فشل سياسة التنصير خلال عهد الاحتلال: لم يدخل الاستعمار الفرنسي أي جهد من أجل تنصير سكان الزواوة بقيادة الأسقف لافيغري، الذي أسس فرقتي الأخوات والآباء البيض، الذين كانوا يتقربون من السكان عن طريق الخدمات الاجتماعية، كالتعليم، وتكوين المرأة مهنية، والرعاية الصحية، والتكفل بالثقافة الأمازيغية، ورغم خطورة هذه الوسائل الترغيبية، فقد فشل الرهبان آنذاك فشلاً ذريعاً في مشروعهم، ولا أدلّ على ذلك من الأرقام الدالة على ضعف النتيجة.

القرن التاسع عشر، فراسلوا مسؤول الإدارة الفرنسية يخبرونه بعزمهم على التصدي لحملة التنصير هذه، وجاء في رسالتهم: (لن نفرط أبداً في ديانتنا، فإذا أرادت الحكومة أن ترغمنا على ذلك فإننا سنلتمس منها وسيلة لمغادرة البلاد، فإن لم نجد، فإننا نفضل الموت على اعتناق ديانتكم... أما فيما يخص طلب هذا الراهب بالإقامة بيننا، فإله يحفظنا من الموافقة على ذلك... فإن أصرّ على السكن في قريتنا، سنخرج منها).

وهناك مثال رائع آخر أدهش الفرنسيين، يظهر إصرار سكان الزواوة على تمسكهم بعقيدتهم الإسلامية، لتفادي التمزق الهوياتي، يتمثل في موقف سكان مدينة بجاية الذين تقدموا بطلب لحاكم المدينة [كاريت Carette] سنة 1850، ليس من أجل طلب لقمة العيش أو مساعدتهم لإعادة بناء منازلهم، أو استرجاع أملاكهم، بل طلبوا منه فقط مساعدتهم في أمر

هذه الجهود على المدى البعيد.

وذكر في هذا السياق في كتابه المشهور "كتاب الجزائر" الصادر سنة 1931م، ما يلي: (وبلاد البربر الكبرى المعروفة بالجرجرة أو بلاد زواوة، هي اليوم موضع عناية كبرى من طرف الحكومة وإدارة العلوم الجزائرية، التي جعلت التعليم الافرنسي (كذا) فيها إجباريا في كل قرية من قراها ودشرة من مداشرها... ويكفيك بأن عدد الطلبة في مدارس الحكومة ببلاد القبائل يبلغ نحو الثلاثين ألفا، وفي بقية البلاد الجزائرية عموما لا يوجد من الصبيان المسلمين في المدارس إلا (30) ألفا، وكذلك بلاد الزواوة موضع عناية كبيرة من طرف رجال التبشير المسيحي، من طرف الآباء البيض وغيرهم، ولهم هناك مدارس علمية وصناعية بديعة البناء كثيرة العمران).

ثم نبّه أحمد توفيق المدني الجزائريين المسلمين إلى ضرورة تضافر جهودهم لمواجهة المخطط

القرى	1907	1913	1922
واغزن	100	185	217
إواضين	140	232	237
آت اسماعيل	105	148	151
إغيل علي	50	40	95
ثاغمونت	44	76	88
عزوز			

عدد المنصرين:

1903- 1905	309	1916- 1917	796
1907- 1908	458	1920- 1921	828
1912- 1913	487		

أحمد توفيق المدني واستشراف

المستقبل: أدرك أحمد توفيق المدني بحصافة رأيه، خطورة نشاط المبشرين المسيحيين، في بلاد الزواوة، على المديّن القريب والبعيد، وبغض النظر عن المبالغة البارزة في الأرقام التي قدمها كمعطيات لهذه القضية، فقد وفق في تحليله وتقديره لخطورة التنصير منذ سنة 1930م، حين انتبه إلى تركيز الفرنسيين لجهودهم من أجل مسخ الزواوة عن طريق التعليم الفرنسي، ونشاط المبشرين، وتوقع ظهور نتائج

خاصة بعد إقصاء السلطة الجزائرية للبعد الأمازيغي، فأنكبّ المتعطشون إلى الأمازيغية على تلك الأعمال، الأمر الذي أدى إلى استعادة الآباء البيض لبريقهم عبر منبر الثقافة.

تراجع دور الزاوية كمرجعية: لم تستطع الزوايا التي كانت تمثل النخبة في المجتمع الزواوي، مواجهة الوضع المستجد في عهد الاستقلال، بسبب فقدانها لدور الريادة، فقد اتجهت السياسة العامة نحو الاشتراكي الذي كان موضوعة ذلك العصر، واعتبرت بموجبه الزوايا رمزا للرجعية، يستوجب الفكر التقدمي التخلص منها. ومن جهة أخرى فقد أدركت الزوايا الاستقلال وهي على درجة كبيرة من الضعف، جراء السياسة الاستعمارية التي أضعفتها إلى حد الجمود، بعد أن استولى الاستعمار على أوقافها وشتت علماءها، ومنعها من تدريس الحساب والتاريخ وتفسير القرآن وباب الجهاد، وحصر دورها في تحفيظ القرآن دون

الاستعماري الجهنمي ببلاد الزاوية قبل فوات الأوان: (إن بلاد زواوة اليوم قد أصبحت من الجهتين الإسلامية والعربية في خطر كبير، فلينبه المسلمون لذلك قبل فوات الأوان... لأن العقيدة الإسلامية لا تزال هناك كما رأيت بنفسي متينة ثابتة، إنما غشيتها غاشية من الجهل والخرافات، وتشوشت فروعها، فإن استمرت على حالة الإهمال الراهنة ونشأت الناشئة الجديدة كلها بعيدة عن العربية والإسلام، جاء اليوم الذي يتخلص فيه النور المحمدي من تلك الربوع، لا قدر الله).

القابلية للتنصير في عهد الاستقلال: ولكن فشلت سياسة التنصير حسب الأرقام المذكورة في تحقيق أهدافها زمن الاستعمار الفرنسي، فإن نشاط المبشرين المسيحيين وجهودهم الفكرية المركزة حول بعث الثقافة الأمازيغية، قد ترسّخت في الذاكرة الجماعية، وانتعشت في عهد الاستقلال،

تغيير سياسي، قصد بناء مؤسسات سياسية تخضع في تسييرها لمبدأ فصل السلطات، والتداول على السلطة، وفق إرادة الشعب، وتكرس المواطنة الحقّة، أدى ذلك إلى زرع الخيبة في أوساط الشباب، أنجبت أفكارا سياسية متطرفة بعباءات مختلفة (دينية وعرقية)، وظهر في هذا السياق التيار السياسي البربري منذ السبعينيات كرد فعل على إقصاء البعد الأمازيغي، وقاد حملة شرسة على الإسلام والعربية، وكان ذلك بمثابة تمهيد الطريق أمام دعاة التنصير.

التطرف الانعزالي: ومما لا يختلف فيه اثنان أن التيار السياسي الانعزالي (MAK) الذي ظهر إلى العلانية عقب أحداث العروش المؤلمة التي انفجرت سنة 2001، هو المستفيد من موجة التنصير باعتبارها عاملا مساعدا على ترسيخ تمايز منطقة القبائل عن باقي الجزائر، حتى تصبح جزيرة معادية للمحيط، هذا ولم يخف الانعزاليون مشروعهم الساعي إلى تصفية العربية

فهم، كما وضع عيوننا لمراقبة المشرفين عليها، لذلك كان وضعها غداة ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حاملة لواء الإصلاح، على درجة كبيرة من الوهن، ودفعها ما آلت إليه من الجمود والضمور إلى رفض الفكر الإصلاحي، الذي كان ضروريا لتجديد نفسها، ومع الأسف فقد دفعها موقفها هذا إلى معارضة بناء المدارس الحرة، وكان ذلك بمثابة تقديم أطفال القبائل على طبق من ذهب للمدرسة الفرنسية، علما أن التلاميذ المتمدرسين في مدارس الجمعية، قد صاروا - على قلتهم - بعد الاستقلال ذخرا للدولة الجزائرية.

غياب الديمقراطية السياسية والاجتماعية: ومما زاد الطين بلة، أن المدرسة الجزائرية قد ظلت مفرنسة شكلا ومضمونا لعشرية كاملة، وزيادة على ذلك فقد أدى إخفاق سياسات الحكومات المتعاقبة، وانسداد الآفاق جراء غياب إرادة سياسية لإحداث

وحضارة أجدادهم الأمازيغية، وركبها أيضا الانعزاليون للاعتبار المذكور آنفا، ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء فئة المبهورين بالحضارة الفرنسية، والمعادية للعربية والإسلام، وأخيرا هناك فئة المهمّشين اليائسين الذين يستمسكون بالتنصر كحصان طروادة، للحصول على الفيزا للهجرة ولمآرب أخرى.

تأخر المسلمين وتقدم الغرب: لا يزال ذلك السؤال الكبير الذي طرحه المفكر الإسلامي شكيب أرسلان (لماذا تأخرنا وتقدم غيرنا) عالقا إلى يومنا هذا ينتظر الإجابة، وبعبارة أخرى فإن وزر ظاهرة التنصير يقع أيضا على كواهلنا نحن المسلمين (حكاما ومحكومين)، لأننا فشلنا في تجديد الخطاب الفكري الإسلامي المناسب لواقعنا الجديد، ففي الوقت الذي بلغ فيه الغرب المسيحي قمة الحضارة طالت العالم قاطبة، وصارت توفر له الرفاهية، لا تزال عاجزين عن إخراج

ومحوها في منطقة القبائل، وإلى إضعاف الإسلام، بتشويه شخصية عبد الحميد بن باديس، الذي وصفه زعيم هذه الحركة بكونه الأب الروحي للإرهاب، كما شكك في وفاء جمعية العلماء للثورة الجزائرية، في حين عمل على إبراز وتضخيم حجم المسيحية في المنطقة حين زعم أن عدد المسيحيين يقدر بـ(10) آلاف شخص، وأن القسم القبائلي المشهور (أجماعليمان) مشتق من الإيمان بالعقيدتين المسيحية والإسلام!، وهو اجتهد يمجّه العقل السليم، ولا يسلم به إلا من يصدق بأن تسمية [شيكسير] تسمية عربية مشتقة من الشيخ الزبير.

طبيعة التنصير وأصناف المنصرين: وبناء على ما تقدم فإن ظاهرة التنصير - في رأيي - ليست نابعة عن القناعة بالعقيدة المسيحية، بل سياسية في جوهرها، أراد معتنقوها الانتقام من النظام السياسي القائم الذي عجز عن التكفل بقضاياهم، وهمّش لغة أمومتهم

هو من الإسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بقبحه وبطلانه، فحياته فكر وإيمان وعمل).

معالم الحل: لا شك أن الحلول تتجاوز إمكانات الفرد، فهي منوطة بمؤسسات علمية، وجهود النخب في شتى المجالات، لذلك فإن البداية تمر عبر فتح قنوات الحوار، لتوسيع قاعدة المشاركة، غير أن ذلك لا يمنع المرء من تقديم بعض الآراء التي يمكنها أن تدفع بالنقاش في الاتجاه الصحيح، فلو أمعنا النظر فيما قاله الأستاذ أحمد توفيق المدني، لأدركنا أن الحل يكمن في تحصين الناشئة بالتنوير، ويتطلب ذلك دراسات عميقة للمجتمع، تكون أرضية لرسم سياسة واضحة المعالم لمواجهة الموقف، مع وجوب تعبئة كل الإمكانيات الضرورية لذلك، علماً أن الميدان اليوم، خلو من أي إجراء جدير بالذكر من شأنه أن يرأب الصدع.

فصحيح أن الاستعمار قد أضربنا بسياسة التجهيل، لكنه أضربنا أيضاً

أنفسنا من دائرة ما سماه ابن باديس بالإسلام الوراثي والتقليدي، المشرب بالدروشة والشعوذة والعادات التي لا صلة لها بالإسلام، وهذا الإسلام كما أضاف ابن باديس: (... لا يمكن أن ينهض بالأمم، لأن الأمم لا تنهض إلا بعد تنبه أفكارها وفتح أنظارها، والإسلام الوراثي مبني على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر). ولعل المحاولة الوحيدة الجديرة بالذكر في مجال تجديد الخطاب الفكري الإسلامي، ما قام به المفكر الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم، من خلال بناء المعاهد الإسلامية ذات البرامج التعليمية المعاصرة، وملتقيات الفكر الإسلامي، التي تم التخلي عنها -مع الأسف- في الوقت الذي كانت الحاجة ماسة إلى ترقيتها وتطويرها، لأنها كانت مرشحة لإحداث النقلة النوعية، على إسلام العقل، أو الإسلام الذاتي بمفهوم ابن باديس الذي يبنى (... على الفكر والنظر، فيفرق بين ما

فإنه من الواجب التوسط بين التهوين والتهويل، فالإسلام ليس فاترا في بلاد الزواوة، كما يعتقد البعض، إلى درجة قرع طبول الحرب، فهو بخير كسالف عصره، ومما يؤكد ذلك أن هذه المنطقة العزيزة عليكم جميعا، تحتل المرتبة الأولى وطنيا من حيث عدد المساجد، لكن القائمين عليها ينتظرون تمكينهم من الإمكانيات الضرورية التي يتطلبها الظرف والعصر، ومن جهة أخرى يجب أن نضع في الحسبان أيضا المقولة المشهورة [معظم النار من مستصغر الشرر].

للموضوع مراجع.

بالمدرسة التي رضعت فيها أجيال الاحتلال إيديولوجية ما تزال تلقي بتداعياتها على أجيال الاستقلال ومنها ظاهرة التنصير، لذلك علينا أن نتخلص من الضررين بالتنوير المعرفي، الذي لن يتأتى إلا بتكريس العقلانية والفكر النقدي، والتربية الروحية الصحيحة، وثقافة المواطنة، وهي أمور تلزم مسؤولينا بإحداث إصلاح تربوي شامل، يسند أمره لأهله، عند ذاك فقط يجوز لنا أن نرفع عقيرتنا عاليا:

يا نشء أنت رجاؤنا

وبك الصبايح قد اقترب.

ومهما يكن أمر قضية التنصير،

